٤ مسلمة بن مخلد
مقاتل شهد له الأعداء

مسلمة بن مخلَّد صحابى جليل تفتحت كرامته طفلاً صغيراً على نور الإسلام، فكان من الفتية الذين آمنوا بربهم، فمثلوا مستقبل الإسلام وفتوته وشبابه. كان يعتز بأنه أدرك عشر سنوات من آخر عمر المصطفى ﷺ، فلم يكتف بالسمع عنه وإنما أضاف إلى ذلك الرؤية أيضاً، والحضور المباشر فى مدرسة الإسلام الأولى، على أيدى معلم الإسلام والهادى إليه محمد ﷺ.. فكان حقاً وصدقاً من المؤمنين به وبرسالته، إيماناً لا يخالطه شائبة من شوائب الجاهلية الأولى.

ولما انتقل النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وتولى أمر المسلمين خليفته أبو بكر الصديق رضى الله عنه، وحدث ماحدث من ردَّة ورجعة.. كان هو فى طليعة الشباب المؤمن المجاهد فى سبيل استمرار الدعوة التى بشَّر بها النبى ﷺ، ولم يخالجه شك فى خيرها لأمة العرب، برغم ما نشط به البعض - مناوئين ومشككين - بل كان ذلك يزيده يقيناً وصلابة بإستمرار الدعوة بعد أن لَبَّى المبشرُ بها نداءَ ربه سبحانه وتعالى، ككل نفس ذائقة الموت.

وحين جاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، بقى كما هو على إيمانه، ثابتاً، وفى سبيل نشر الدعوة مجاهداً، وفى إعلاء كلمة الإسلام وفياً.. لم يكن ما يفعله بالقول، وإنما بالفعل، بعد أن أخذ الإسلام طريقه إلى الانتشار، فتجاوز جزيرة العرب إلى غيرها من الأمصار والبلدان والأمم، عندئذ كان مجاهداً فى سبيل نشر هذه الدعوة كواحد من جنود الفاروق عمر رضى الله عنه، أينما وجَّهَهُ، مؤتمراً بأمره، مؤمناً بأنه إنما يفعل ذلك من أجل استمرار الدعوة التى فتح عينيه على نورها يوم كان صبياً صغيراً.

كذلك كان مسلمة بن مُخلَّد واحداً من القادة الأربعة للمدد العظيم الذى أرسله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه . . ليدعم به قوة المسلمين التى تواجه الروم، إحدى القوتين العظميين فى العالم القديم، غداة فتح مصر.

هؤلاء الأربعة هم: «الزبير بن العوام»، و «عبادة بن الصامت»، و «المقداد بن الأسود»، و «مسلمة بن مخلد». . وقد كانوا جميعهم ممن ثبت حسن إيمانهم وجهادهم فى سبيل نشر دين الله فى حياة رسوله ﷺ، أو بعد وفاته.

لقد قال عنهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، موجها خطابه إلى قائد فتح مصر عمرو بن العاص، وهو يومئذ على أبوابها: «كنت قد وجهت إليك أربعة نفر، وأعلنتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ماكنت أعرف. . .».

هكذا قال الفاروق عمر عن الأربعة، ومنهم «مسلمة بن مخلَّد» وما كان لسان عمر رضى الله عنه ينطق إلا بالصدق. وما كانت نظرته فى الرجال ومعرفته بأقدارهم تخيب فى يوم من الأيام. وهل كان تقدير الفاروق عمر يميل يمنة أو يسرة فى رجل يبعثه للجهاد فى سبيل. الإسلام؟ بالقطع لا، فهو أعرف الناس بمن يقوم بمثل هذه المهام الجسام، ولذلك يقدمهم إلى كبير قواده فى فتح مصر بقوله: إن الرجل منهم مقام ألف رجل، لما له من صدق وعزيمة، وإيمان وتقوى، وتضحية وفداء.

وينضم مسلمة كما انضم الثلاثة الآخرون فى صفوف المجاهدين أفراداً، لايطالبون بعلو مركز، أو قيادة أفراد، فليس هذا هدفهم، إنما الهدف هو إعلاء كلمة الله، ويستوى فى ذلك كونه فرداً أو قائداً، فالمهم بلوغ الهدف.

وليس غريباً والأمر كذلك أن يستشير عمرو بن العاص ـ صاحب الحيلة والدهاء، والقائد الذى شهد بكفاءته فى المعارك المؤرخون ـ هؤلاء الأربعة، ومنهم مسلمة بن مخلد رضى الله عنه فى كل خطوة كان يخطوها. . . وليس غريباً أيضاً أن ينفذ ما أشار به عليه «مسلمة بن مخلد» على وجه التحديد فى خطة فتح مدينة الإسكندرية.

لقد أشار «مسلمة بن مخلد» أن يعقد اللواء لعبادة بن الصامت، لما له من مواصفات معينة، لعل أبرزها هيبته وضخامته، تلك التى اندهش لها الروم. وقد

أخذ بذلك عمرو بن العاص لثقته بأن «مسلمة بن مخلد» من الرجال المخلصين الذين لا يُستهان برأيهم فى مصير الأمم، سواء فى الحرب أو السلام.

وحين تكون الحرب بين المسلمين والروم نجد مسلمة بن مخلد بين الصفوف، لا على أنه القائد الذى يأمر ويوجه ويقف خلف القوات ليكون آخر مَنْ يُقتل وأول من ينقذ، لكن نراه مجرد فرد من الأفراد يكر ويفر، يُبارز ويضرب، يلتحم ويصارع، فنراه عندما حمى وطيس المعركة يبارزه فارسٌ من فرسان الروم، يبدو أنه أُعدّ خصيِّصاً لملاقاة صناديد الفرسان، فيصرعه بضربة من الخلف، يسقط مسلمة ابنَ مخلد بسببها عن جواده، وتعوقه قوة الضربة ومفاجأتها، إلى جانب بطء حركته لبدانته، فقد كان رضى الله عنه رجلاً بديناً، فيكاد الفارس الرومى يهوى عليه بسيفه ليجهز عليه ويقتله لولا أن حماه رجل من المسلمين،فغطي مسلمة بسيفه حتى يستعيد توازنه.

غضب عمرو بن العاص عندما علم بما حدث، وعاتَبَ ولامَ «مسلمة» أن يتقدم هكذا الصفوف وهو المستَهْدَفُ من العدو،واتخذ لوم عمرو بن العاص لونًا من التقريع والتوبيخ، مما أغْضب مسلمة، ولكنه كظم غضبه. من عمرو كما كظم غيظه مِمَّا حدث، وحالت أخلاقه من أن يفصح عمَّا يشعر، بل أسَرَّهُ فى نفسه.

وتتوالى معارك الفتح الإسلامى بين المسلمين والروم، ويشتد القتال بين الطرفين. . حتى إذا اقتحم المسلمون حصنا حصيناً بالإسكندرية يدخله عمرو ومعه مسلمةَ ونفر من الرجال، تكر عليهم جحافل قوات الروم وتجبر المسلمين على الخروج من هذا الحصن الذى استولوا عليه، ولا يبقى من المسلمين إلاَّ أربعة من الذين لم يستطيعوا الخروج لاشتداد الهجمات، كان عمرو بن العاص نفسه، ومسلمة بن مخلد من هؤلاء الأربعة الذين لم يعرفهم الروم.

وتكلم رومى بالعربية، حيث بدأ فى المساومة قائلاً: «إنكم قد صرتم بأيدينا أسارى فاستأسروا ولا تقتلوا أنفسكم». فامتنعوا عليهم. فعاد الرومى يقول: «إن فى أيدى أصحابكم رجالاً منا أسروهم، ونحن نعطيكم العهود. نفادى بكم أصحابنا ولا نقتلكم. . فأبى الأربعة رافضين».

فأستأنف الرومى مساومته لعمرو ومن معه، بدون أن يعرف شخصياتهم، قائلا: «هل لكم إلى خطة نصف بيننا وبينكم، أن يبرز منكم رجل، ومنا رجل، فإن غلبَ صاحبنا صاحبكم استأسرتم لنا وأمكنتمونا من أنفسكم، وإنْ غلبَ صاحبكم صاحبنا خلينا سبيلكم إلى أصحابكم».

وهنا رضى المسلمون الأربعة بهذا الأمر، برغم ما كانوا يعلمون مسبقاً أن الروم يشتهرون بالمهارة فى المبارزة والقتال، وأنهم لكى يكسبوا الجولة فلابد أن يختاروا من بينهم أكثرهم مهارة.. ولكنهم وافقوا على ذلك. وماهى إلا لحظات حتى برز من بين الروم رجلٌ قوىُّ البنية، ضخم الهيئة، يبدو أنهم كانوا يدَّخرون أمثاله لمثل هذه المواقف الحاسمة.

وأراد عمرو بن العاص أن يُلاقى هذا الرومى بنفسه، فمنعه مسلمة حتى لايتعرض للقتل وهو القائد الأعظم لفتح مصر، فيكون قتله بلاءً على أصحابه من المسلمين، وفضَّل أن يتقدم هو، حتى لو قُتل فلن يكون قتله. بمثل قتل عمرو.. واستأذنه على ذلك، فقال عمرو بن العاص: «دونك.. فربما فَرَّجَّها الله بك».

وبارز مسلمة بن مخلد هذا الرومى القوىَّ عدة مرات، بعدها استطاع مسلمة أن ينقضَّ عليه ويقتله، ليخرج المسلمون الأربعة من الحصن عملاً بما اتفقوا عليه مع الروم قبل المبارزة.

وقد ندم عمرو بن العاص واستحيا من لومه وتوبيخه وتقريعه لمسلمة بن مخلد، حتى أنه قال له ـ وقد استأثره على نفسه وفداه بسيفه: «والله ما أفحشتُ قط إلا ثلاث مرار.. مرتين منهم فى الجاهلية، وهذه الثالثة.. وما منهن إلا وقد ندمت عليها، وما استحييت من واحدة منهن أشد ما استحييت مما قلتُ لك.. والله إنى لأرجو ألاَّ أعود إلى الرابعة ما بقيت سامحنى يا مسلمة».. وسامحه «مسلمة» على ما حدث.

هذه الصورة الجليلة من التضحية والفداء، من الشجاعة والإقدام، من الأدب والخلق... تقدم لنا جانباً من جوانب أخلاق هذا الصحابى الجليل مسلمة بن مخلد. وهو جانب مضئ يجمل التَّأَسِّى به والاحتذاء به، كمثال يرينا كيف كانت

طباع هؤلاء الرجال من القوة والعظمة، مما كان له أكبر الأثر فى القضاء على وجود الروم بمصر، وتحرير أبنائها. ثم تخييرهم فى أن يدخلوا فى دين الله أفواجاً وإذا بقى أحد على دينه القبطى فله الأمان بين المسلمين، ولهذا أيضاً سارع المصريون إلى الدخول فى حظيرة الإسلام لما رأوه من رجاله الذين جاءوا فاتحين من المبادئ والقيم، وهو مالم يكن يرونه عند الروم وقتئذ.

وكان مسلمة بن مخلد رضى الله عنه مثالاً طيباً لهذا الدين الذى يراد له أن يدخل مصر.. فقد كان ورعاً تقياً بين الناس أميناً مخلصاً فى عبادته للخالق، مكافحاً مجاهداً فى الدفاع عن دينه، حتى أصبح مضرب الأمثال، إذ يقول عنه المقريزى ـ نقلا عن مجاهد رضى الله عنه: «صليتُ خلف مسلمة بن مخلد فقرأ سورة البقرة، فما تركَ ألفاً ولا وَاواً».

وقال أيضا المقريزى نقلا عن مجاهد: «كنتُ أرانى أحفظ الناس للقرآن الكريم، حتى صليت خلف مسلمة الصبح، فقرأ سورة البقرة فما أخطأ..»

وقال الواقدى: «إن مسلمة كان إذا قرأ القرآن فى المحراب.. يسمع سقوط دموعه على الأرض».

ولعل خير ما نختم به الحديث عن هذا الصحابى الجليل من وثائق وروايات، ما قاله عنه الإمام أحمد بن حنبل: «إن مسلمة بن مخلد شهد فتح مصر وسكنها، ثم ولاَّه معاوية بن أبى سفيان مصر بعد عزل عقبة بن عامر رضى الله عنه، وذلك فى سنة سبع وأربعين للهجرة، وقد جمع له معاوية الصلاة، أى الإمامة والخطابة، وكذلك الخراج، أى النواحى المالية، وأضاف إلى ولايته على مصر بلاد المغرب».

وأما عن وفاته فيذكر السخاوى ما يؤكد أنه توفى بمصر ودفن فيها ضمن مَنْ دفن من عظماء الإسلام قائلا: «وبمصر الموضع المعروف بمذبح الجمل، فيه قبر الرجل الصالح مسلمة بن مخلد الأنصارى».

وتتفق أغلب المصادر والمراجع القديمة والحديثة مع قول السخاوى، مؤكدة أن مسلمة بن مخلد رضى الله عنه قد مات بالفعل فى مصر، ودُفن فى القاهرة، وبالتحديد فى مصر القديمة، فى المكان المعروف فيها بمذبح الجمل، وقد بُنى على قبره ضريح يظلله فى مسجد يحمل اسمه حتى الآن.

* * *